7. النفعية والبراغماتية

1.7. النفعية

تيار المنفعة أو الذرائعية أو الأداتية (**utilitarisme**)، هو مذهب فلسفي وفكري يحدد القيمة الأخلاقية لأي فعل بناءً على قدرته على تحقيق المنفعة الجماعية، وهو ما يُلخصه مبدأ «أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس». وقد ظهر هذا التيار في سياق تطور التجريبية الفلسفية الانجليزية ،ويعتبر جيريمي بنثام الأب المؤسس لهذا التيار في القرن الثامن عشر.

"خلال مدة ربما بلغت نصف قرن بدأت مع نشر كتاب ديفيد هيوم "بحث في الطبيعة البشرية" عام 1739 وتوجت بنشر كتاب جيريمي بنثام (Jeremy Bentham) "مقدمة لمبادئ الأخلاق والتشريع" ، وباندلاع الثورة الفرنسية في عام 1789م تطورت مدرسة فكرية سوف تترك بصمة ثابتة على كل جانب من جوانب العالم الذي هيمنت عليه الأفكار الأوروبية( )". هاته المدرسة هي النفعية أو مذهب المنفعة ، الذي يجد أصوله بداية من ديفيد هيوم وبعض المفكرين ذوي الخلفية الليبرالية أمثال سيزاري باكاريا ، لكنه يعود لتأسيسه كمذهب قائم بذاته الى جيريمي بنثام وخلفه جون ستيوارت ميل (John Stuart Mill).

تقوم مقاربة العدالة عند النفعيين على اعتبار العدالة قيمة تؤدي الى تحقيق المنفعة ، فمشروعية العدالة تحسب من خلال قدرتها على تحقيق المنفعة. تعمد المدرسة النفعية الى جعل المنفعة واللذة معيار تقاس عليه كل القيم والأفكار ، فالفكرة هي مشروعة بالقدر نفسه الذي تقود به الى تحقيق منفعة معينة. ويعبر مبدأ بنثام ، المسمى بمبدأ المنفعة أو السعادة القصوى عن رمزية النفعية هاته : "تحقيق أكبر قدر ممكن من السعادة لأكبر قدر ممكن من الناس". فالنظرية النفعية وان كانت تهدف الى تحقيق نفع كل فرد على حدة ، فإنها لا تهمل المجموع ، بالتالي فهي نظرية في العدالة الاجتماعية بنفس القدر التي هي نظرية في العدالة الفردية. وهو ما

يذهب اليه ميل استنادا لبينثام ، من أن "على الجميع أن يعتبر الواحد ، ولا أحد لأكثر من واحد( )". وهذا هو ما يجعل من المقاربة النفعية في العدالة مقاربة مساواتية تقوم على الحرية الفردية ، باعتبارها لا تنظر للأفراد في وحدتهم الاجتماعية ، بل باعتبارهم ذوات ذرية مستقلة.

تظهر أفكار العدالة النفعية عند كثير من مفكري الأنوار والحداثة أمثال سيزار باكاريا ودعواه لعدالة مساواتية ، استنادا الى قانون جنائي انساني يقوم على مبدأ تحقيق المنفعة من العقوبة. فالعدالة بهذا هي "طريقة يفهم من خلالها البشر الأمور الأخلاقية في شكل يحقق الرفاه لكل واحد منهم( )". أما سميث (Adam Smith) فقد نظّر للعدالة من زاوية اقتصادية ، واعتبرها أيضا تحقق المنفعة العامة والخاصة. وإذا كان في الانسان ملكة طبيعية للعدالة ، فان العدالة في المجتمع تصنعها وتحفظها المؤسسات السيادية لهذا المجتمع.

بالنسبة لهيوم لا توجد فضيلة اسمها العدالة بالألف واللام ، لكن العدالة هي عبارة عن عدة قواعد صاغها البشر لتنظيم حياتهم الاجتماعية ، بالتالي فلا وجود للعدالة خارج المجتمع. والعدالة هي فضيلة من الفضائل المصطنعة ، حيث أن "الفضيلة هي كل فعل أو صفة للنفس تستثير احساسا باللذة وبالاستحسان لدى كل من يكون شاهدا عليه ، وليس للحس الخلقي معنى إلا اذا كان مرجعه الى مجتمع يحكم وفق مقاييسه( )".

مع جيريمي بنثام ستتحول النفعية الى مذهب قائم بذاته ، حيث ستتحول عبارته الشهيرة عن "تحقيق المنفعة لأكبر عدد ممكن من الناس" الى الشعار الرسمي لمذهب المنفعة. فبالنسبة لبنثام فان معيار العدالة هو اللذة أو المنفعة التي تتحقق لكل فرد داخل المجتمع ، ف"الطبيعة جعلت البشرية تخضع للسلطة المطلقة لنوعين من الأحكام : الألم والمتعة. الأمر يعود اليهما وحدهما لتقرير ما يتعين علينا أن نفعله ، علاوة على أنهما هما اللذان يحددان ما سوف نفعله. وترتبط قرارات الصواب والخطأ من جهة ، ودوافع الأفعال والتأثيرات التي تنتج عنها من جهة أخرى ، بقرارات هذين العاملين( )". وقد كان من نتيجة تصور بنثام هذا للطبيعة البشرية أن يتصور

البشر على أنهم متساوون ، ومنه الخلفية الديمقراطية المساواتية لأفكار بنثام حول العدالة. فيقول في هذا الصدد : "يبدو في كثير من الأحيان أن الشيء الذي لا يخطر في أذهان هؤلاء الذين ينادون بحماسة بالغة بالمصلحة العامة من خلال خطاباتهم المتقدة الرنانة هو كما أن حزمة الحطب تتألف من مجموعة عصي ، كذلك الأمر بالنسبة الى جمع من الأفراد : يشكل الفرد جزءا أساسيا من الجماعة يساوي ما يمثله أي فرد آخر : وتشكل سعادة إنسان معين جزءا كبيرا من سعادة الجماعة وتساوي قيمتها قيمة سعادة أي إنسان آخر( )".

من هنا يتحدد مبدأي الحرية الفردية والمساواة كأحد أهم تصورات المقاربة النفعية عند بنثام ، وهو الذي لم يركز فقط على الجانب النظري بل جعل من النظرية النفعية نظرية في الممارسة السياسية ، من حيث توكيدها على رسوخ مبدأ الملكية الخاصة والحقوق الفردية. فلا يمكن تصور نظرية في العدالة الاجتماعية بدون وجود المِلكية الخاصة. أما بالنسبة للعقوبات الجنائية فقد ربطها بنثام مثلما فعل باكاريا بمبدأ المنفعة ، "فالجزاء لا دور له سوى أن يدخل في حساب اللذات والآلام التي سيذوقها المرتكب للجريمة أو الجنحة( )" ، مضافا اليها الآثار المترتبة عن هذا الجزاء على المجتمع. بهذا ترجع معيارية القانون الجزائي والعدالة في المجتمع وفق المقاربة النفعية البنثامية لمعيار "أعظمية المنفعة".

مع "جون ستيوارت ميل" سيتم صياغة مذهب المنفعة في صيغته النهائية المتعارف عليها ، حيث سيصدر ميل مؤلفا بعنوان "النفعية" يشرح من خلاله المبادئ العامة لمذهب المنفعة ومقاربته في العدالة ، أين يرفض ميل المقاربة المثالية للعدالة كما يمثلها الفيلسوف الألماني كانط ، في المبدأ القائل ب "اعمل دائما بطريقة تكون فيها ارادتك مقبولة كمبدأ لتشريع كوني لجميع الكائنات العاقلة( )". ويقترح ميل بديلا عنها ، ممثلا في المبدأ القائل: "يجب أن نوجه سلوكنا بحسب قاعدة يمكن لكل الكائنات العاقلة أن تتبناها بمنفعة تحقق مصالحهم الجمعية( )".

حاولت النفعية جعل الأخلاق علما ، فبحثت عن معيار صارم وجدته في مبدأ "المنفعة" ، التي قاربت به كل القيم الانسانية وعلى رأسها العدالة ، ويبدو أن هذا الأمر عينه هو سر مقبولية المقاربة النفعية ومكمن النفور منها في آن[1].

[1] *من أطروحة : أيمن بوطرفة بعنوان : سؤال العدالة في الفلسفة الراهنة.*

7. 2. البراغماتية

تمثل البراغماتية أو الذرائعية PRAGMATISME التطور الطبيعي لمذهب المنفعة، حيث ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية، وانتشرت مع نهاية القرن التاسع وبدايات القرن العشرين، لتتحول لأحد أهم وأشهر التيارات الفكرية والفلسفية المعاصرة.

في ما هو شائع أن تكون براغماتياً ، فهذا يعني أن تكون واقعياً وقادراً على التكيف وموجهاً نحو إيجاد الحلول ومركزاً على الفعالية، لا سيما في عالم العمل أو السياسة.

أما كتيار فلسفي فالبراغماتية هي موقف وتيار فلسفي نفعي في تصوراته ، يقدِّر الفعالية والواقعية والعمل أكثر من النظريات المجردة. وهي تُقيِّم صحة الفكرة من خلال نتائجها العملية وفائدتها. وهي بهذا تظهر كنقيض للمذهب العقلي، وخصوصا الفلسفة الكانطية التي ترى بأن الفعل الأخلاقي يجب أن يكون لذاته، لا لنتائجه.

لبثت الفلسفة دهراً طويلاً تسبح في سماء الفكر المجرد، بعيدةً عن الحياة العملية التي تعج بأصدائها أرجاء الأرض جميعاً، فقد حصرت معظم جهودها في البحث عن جوهر الأشياء في ذاتها، حتى جاء زمن صعود الولايات المتحدة وهيمنة ثقافتها على العالم، فبدأت تفرض نظامها ونظرتها في جميع مرافق الحياة، بما فيها الفلسفة التي لم تنج من تأثيرها.

والفلسفة بصبغتها الأمريكية تمقت البحث النظري وتراه مجدباً عقيماً، فهي تريد أن تنحو بالفكر منحى جديداً لا يكون من شأنه البحث في حقيقة الشيء ومصدره؛ بل نتيجته وثماره. وهكذا ظهرت الفلسفة البراغماتية، وهي أكبر تجسيد للنظرة الأمريكية للفكر والمعرفة.

"مصطلح البراغماتية مشتق من اللفظ اليوناني "براغما" ومعناه العمل، وهي مذهب فلسفي يحاول تطبيق الأساليب العملية على الفلسفة، وتتركز فكرته الأساسية على أن معنى فكرة ما أو حقيقتها تتحدد بتأثير تلك الفكرة على الممارسة والسلوك، وأن حقيقة كل المفاهيم لا تثبت إلا بالتجربة العملية.

وتقرر البراغماتية أن العقل لا يبلغ غايته إلا إذا قاد صاحبه إلى العمل المفيد. فالفكرة الصحيحة هي الفكرة الناجحة، أي الفكرة التي تحققها التجربة، وكل ما يتحقق بالفعل فهو حق، ولا يقاس صدق القضية إلا بنتائجها العملية."[2]

ترفض البراغماتية المفاهيم الميتافيزيقية المجردة، للتركيز على التجربة المعاشة والواقع الميداني. وتعتبر الفكرة "صحيحة" إذا كانت فعالة، وتساعد في حل المشكلات، وتثبت فائدتها في الممارسة العملية. وعليه فالبراغماتية، التي أطلقها تشارلز بيرس، و جيمس، وجون ديوي، هي نظرية تدرس عالم الأفكار من خلال دراسة الآثار العملية لمعتقداتنا وتفكيرنا.

[2] https://al-sabeel.net/encyclopedia/%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%B1%D8%A7%D8%BA%D9%85%D8%A7%D8%AA%D9%8A%D8%A9/